

الكانون في القرن السادس عشر الميلادي

حليمة بنكرعي

يعني مصطلح الكانون الأسرة ، سواء كانت تلك الأسرة تعيش في البادية أو في المدينة ، ويرمز الكانون إلى مكان إيقاد النار أي المطبخ ، كأن خلق أسرة مرتبط بفتح مطبخ جديد ، ومن ثم فالكانون في القرن السادس عشر يعني ، بالدرجة الأولى، أسرة مستقلة بذاتها في مجال التغذية ، مما يعني أن المطبخ هو الأسرة لا العكس . وتتكون الأسرة عند بلوغ الرجل ست عشرة سنة ⁽¹⁾ ، وتخرج عن هذه القاعدة الأسرة في المناطق الصحراوية ⁽²⁾ ، التي تشكل الخيمة أساسها ، بينما يعرف المطبخ بها — : " النواله " . وتتميز القرية عن المدينة باحتواء هذه الأخيرة لعدد من الكوانين يتراوح ما بين 400 و 1.000 كانون ⁽³⁾ .

ويدل المعيار ، الذي يتم به إحصاء عدد السكان من قبل أهل البلاد ، على سيطرة مفاهيم اقتصادية ، والتي يطغى عليها الطابع القروي . فإحصاء السكان يكون بعد الكوانين عن طريق بيضة دجاجة لكل كانون ⁽⁴⁾ . وتتكون " السرجة " من 15 كانون ⁽⁵⁾ في المناطق الجبلية ، حيث يؤخذ السرج أساسا في عملية إحصاء الكوانين بها ⁽⁶⁾ .

1 - الحسن الوزان : وصف إفريقيا . ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط. 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ، صص. 137-138 .

2 - رسائل سعدية . نشر : عبد الله كنون ، ص. 194 .

3 - انظر في هذا المجال : الوزان .

4 - محمد الصغير الوفرائي : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي . تصحيح ونشر : هوداس ، طبعة 2 ، مكتبة الطالب ، الرباط ، د.ت ، صص. 38-40 . وانظر كذلك : كناش السلطان أحمد المنصور . تحقيق : حليمة بنكرعي ، ضمن رسالة : مداخل بيت مال المغرب في عهد السعديين

د.د.ع. في التاريخ الحديث ، الرباط ، 1985 ، ملحق رقم 2 ، ص. 6 .

5 - كناش السلطان أحمد المنصور الذهبي . ملحق ص. 7 .

6 - المكان نفسه .

وفي المناطق الصحراوية يتم إحصاء السكان عن طريق ضبط عدد الخيام، ووصل عدد هذه الأخيرة في الفترة المؤرخ لها إلى 46.000 خيمة (7) .
وأما المصادر الأجنبية فتعتمد في العد على عدد الفرسان، وقدمت ذلك كالتالي :

- 15.000 فارس في درعة وسوس (8) .

- 25.000 فارس بمراكش (9) .

- 20.000 فارس بفاس (10) .

ولضبط عدد السكان ، في القرن السادس عشر ، نعتبر عدد عشرة أفراد متوسطا لما يضمه الكانون ، نظرا لسيادة تعدد الزوجات من جهة ، ثم لتكفل الأسرة النواة بالشيوخ من جهة أخرى .

وتختلف قوانين البوادي عن مثيلتها في الحواضر بخصائص تتعلق بطرق كسب العيش ، وبالمستوى المعيشي للسكان وبعقليتهم وعاداتهم . فطرق كسب العيش في الفترة المؤرخ لها لا تختلف كثيرا عند سكان المدن والبوادي ، ويمكن الاختلاف الوحيد في كون أهل البادية يضيفون للنشاط الفلاحي والتجاري تربية الماشية ، الأمر الذي لا وجود له لدى سكان الحواضر (11) .

وفيما يتعلق بالمستوى المعيشي للكوانين فإن ما يميز بينها في البوادي هو درجة تحضرها . وترتبط درجة التحضر هاته بالمستوى التعليمي للسكان وبمدى سمو طريقة عيشهم .

وبالنسبة للمستوى التعليمي فإنه يقاس بما تضم القرية والدوار من مساجد وفقهاء ، علما بأن هذه المساجد تختلف من حيث دورها التعليمي والتعبدية وكذا درجة سعتها . فقد كان المسجد يعتبر صغيرا ، إذا لم تتعد سعته 100 شخص (12) ، وكانت القرى تتبارى في ما بينها بمستوى تضلع فقهاء في علوم الفقه ، ولهذا كانت تقام مناظرات فقهية في منزل أحد الفقهاء لمناقشة مختلف المواضيع ، مثل مسألة جواز بيع ملك الخواص أو عدم جوازه ، إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك (13) . ويكون المستوى التعليمي متوسطا حينما يتم اللجوء ، لحل المسائل الدينية ، إلى فقهاء من خارج القرية

7 - رسائل سعدية . م . س . ، ص . 194 .

8 - MARIOL : L'Afrique , traduit par Nicolas PIRRETTIER , t. 3 , p. 445 .

9 - ibidem .

10 - ibidem .

11 - الوزان : م . س . ، ص . 101 .

12 - نفسه . ص . 102 .

13 - نفسه . ص . 106 .

أو الدوار ، لعدم أهليتهم للبت فيها بأنفسهم ، بينما يكون المستوى متدنيا في حالة جهل السكان بالعقيدة الدينية ، أو لا يوجد بينهم قاض أو فقيه⁽¹⁴⁾ .

وأما سمو طرق العيش فتقاس برواج النقود في المعاملات ، وعلى هذا الأساس اعتبرت بوادي المناطق الشمالية أكثر تحضرا من مثيلاتها في باقي المناطق المغربية ، لأن ساكنة البوادي الشمالية عرفت رواج النقود⁽¹⁵⁾ ، وشاع ذلك بين شرائح عريضة منها⁽¹⁶⁾ .

كما أن سمو المستوى المعيشي يراعي الملبس والمأكول والعادات والعقليات ، وفي هذا المجال تباهى سكان البوادي والحوضر في ما بينهم ، بما لهم من ملابس فاخرة وما يملكون من خيول تتوفر على أحسن السروج⁽¹⁷⁾ . كما تقاسموا معيار درجة الرقي في استعمالهم الصابون . أما انخفاض مستوى المعيشة فيظهر في الزي البسيط المكون من ثياب غير مخيطة تأخذ شكل قماش يلتف به⁽¹⁸⁾ ، وفي انتعال نعال من جلد الجمال أو البقر⁽¹⁹⁾ ، وفي استعمال الرماد عوض الصابون⁽²⁰⁾ .

أما العقليات فتختلف من جهة إلى أخرى ، ففي بعض المناطق يقوم السكان بالتقريب عن الماء في طقوس يشارك فيها المنجمون والسحرة⁽²¹⁾ ، بينما تضم مناطق أخرى أناسا فضلاء أنقياء ونساكا⁽²²⁾ . وإذا كانت بعض القبائل في نزاع مع جيرانها ، فقد جرت العادة أن تصحب معها بعض النساء أو الفقهاء لتعبر مجالاتهم بسلام⁽²³⁾ . وكان من عادة القبائل أيضا أن يكون لها مأوى للغرباء ، إن كانوا من غير التجار ، أما إذا كانوا تجارا فيستضيفهم أحد أعيان القبيلة ، إضافة إلى وجود ملاجئ لإيواء الفقراء وإطعامهم⁽²⁴⁾ .

14 - نفسه ، ص. 101 .

15 - Bernardo RODRIGUES : *Anais de Arzila , cronica inedita , do seculo XVI , t. I , p. 157* .

16 - *ibidem* .

17 - الوزان : م. س. ، ص. 110 .

18 - نفسه ، ص. 100 .

19 - نفسه ، ص. 110 .

20 - نفسه ، ص. 98 .

21 - نفسه ، ص. 136 .

22 - نفسه ، ص. 112 .

23 - نفسه ، ص. 98 .

24 - نفسه ، ص. 99 .

أما التركيبة الاجتماعية للكوانين فتتكون من عرب وبربر⁽²⁵⁾ ، في بعض المناطق ، ومن بربر ويهود⁽²⁶⁾ في مناطق أخرى . ومن اليهود من كان يمتطي الجياد ويحمل السلاح ويحارب⁽²⁷⁾ ، مما كان يجعل الفئات الأخرى من اليهود تعتبرهم مارقين وتدعوهم " كرايم "⁽²⁸⁾ .

ويتميز سكان الكوانين في ما بينهم بلون البشرة ، فأغلب سكان السواحل ذوو بشرة بيضاء ، وهم في غاية الألفة⁽²⁹⁾ ، وغيرهم يميلون إلى السمرة⁽³⁰⁾ .

وغالبا ما يتم زواج الشاب عند بلوغه سن السادسة عشر⁽³¹⁾ ، وتميز بعض القبائل المتزوج بكونه يعفي لحيته⁽³²⁾ ، وأقصى ما يعيشه السكان في بعض المناطق ثمانين إلى تسعين فمئة سنة ، وقد يبلغون هذا العمر وهم في صحة جيدة ، حتى إن الموت يدركهم وهم يعملون⁽³³⁾ .

25 - كناش السلطان أحمد المنصور الذهبي ، م. سث. ، ملحق ، ص. 6 .

26 - الوزان : م. س. ، ص. 142 .

27 - نفسه ، ص. 111 .

28 - المكان نفسه .

29 - نفسه ، ص. 109 .

30 - نفسه ، ص. 120 .

31 - نفسه ، صص. 137-138 .

32 - نفسه ، ص. 98 .

33 - نفسه ، ص. 14 .